الغزال الشـــــاعر

بقلم الدكتور زكى مبارك

الغزال هو يحيى بن الحكم البكرى الجيانى ، ولقب بالغزال لجماله ، ولد سنة ١٥٦ هـ وتوفى سنة ٢٥٠ ، وهو شاعر مغلق ضاع ديوانه ولم يبق من شعره غير شذرات متفرقة فى كتب الأدب ، وكان يذهب فى أكثر شعره مذهب راشد بن إسحاق ، وهو شاعر ضاع ديوانه أيضاً ، وتحامى المؤلفون فى الأدب رواية شعره لما كان يغلب عليه من المجون .

وللغزال قصيدة حاكى بها مذهب راشد وشاع ذكرها فى المشرق ، وبلغ من أهميتها أن سأل عنها عبد الله بن طاهر — يوم كان والى مصر من قبل المأمون — احد تجار الأندلس ، فلما أنشده إياها سر بها وكتبها وأجزل لراويها العطاء .

والقصيدة مجونية ، ولكن مجونها ملفوف ، لهذا نستبيح تقديمها لقراء « المعرفة » ، وما نحسبهم يتورعون عن رواية ما استجاده أمير كان يراه الذهبى من كبار الملوك .

خرجت إليك وثوبها مقلوب ... ولقلبها طرباً إليك وجيب
وكأنها فى الدار حين تعرضت ... ظبى تعلل بالفلا مرعوب
وتبسمت فأتتك حين تبسمت ... بجمان در لم يشنه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطربت ... نفس إلى داعى الضلال طروب
حسبتك فى حال الغرام كعهدها ... فى الدار إذ غصن الشباب رطيب
وعرفت ما فى نفسها فضممتها ... فتسافطت بهتانة رعبوب
وقبضت ذاك الشىء قبضة شاهن ... فنزا إلى كفيها حلبوب
يبدى الشمال ولا شمال لطافة ... ليست لأخرى والأديب أريب
فأصاب كفى منه حين لمسته ... بلل كماء الورد حين يسيب
وتحللت نفسى للذة رسحه ... حتى خشيت على الفؤاد يذوب
فتقاعس الملعون عنه وربما ... ناديته خيراً فليس يجيب
وأبى فحقق فى الاباء كأنه ... جان يقاد إلى الردى مكروب
وتغضنت جنباته فكأنه ... كير تقادم عهده منقوب
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ... قبساً وحان من الظلام ذهوب
ساءلتها خجلا أما لك حاجة ... عندى فقالت ساخر وحروب
قالت حرامك إذ أردت وداعها ... قرن وفيه عوارض وشعوب

وحكى ابن دحية أن الغزال سافر إلى بلاد المجوس ، وقد قارب الخمسين ووخطه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشد ، فسألته زوجة الملك يوماً عن سنه فقال لها مداعباً : عشرون سنة ، فقالت : وما هذا الشيب ؟ فقال : وما تنكرين من هذا ؟ ألم ترى قط مهراً ينتج وهو أشهب ؟ فأعجبت بقوله ، فقال فى ذلك — واسم الملكة تود — :

كفت يا قلبى هوى متعباً ... غالبت منه الضيغم الأغلبا
إنى تعلقت مجوسية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا ... يلقى إليه ذاهب مذهبا
يا تود يا رود الشباب التى ... تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذى لا أرى ... أحلى على قلبى ولا أعذبا
إن قلت يوماً إن عينى رأت ... مشبهه لم أعد أن أكذبا
قالت أرى نوديه قد نورا ... دعابة توجب أن أدعبا
قلت لها ما باله إنه ... قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجباً بقولى لها ... وإنما قلت لكى تعجبا

فلما فهمها الترجمان هذه الأبيات ضحكت وأمرت الغزال بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال فى ذلك :

بكرت تحسن لى سواد خضابى ... فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب يغمه ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا ... فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فانما ... هو زهرة الأفهام والألباب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا ... وطلاوة الأخلاق والآداب

وحكى ابن حيان أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وجه الغزال إلى ملك الروم فأعجبه حديثه ، وخف على قلبه وطلب إليه أن ينادمه فامتنع من ذلك واعتذر بتحريم الخمر . وكان يوماً جالساً عنده وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسناً ، فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه ؛ فأنكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه فانى لم أر قط مثلها ؛ وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين ! فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله ، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها أن فيه أكبر فائدة : وذلك أن الغصن إذا زبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت وقطنت لتعريضه .

وكان الغزال أقذع فى هجاء على بن نافع المعروف بزرياب فذكر ذلك لعبد الرحمن بن الحكم فأمر بنفيه ، فدخل العراق بعد موت أبى نواس بمدة يسيرة، فوجد العراقيين يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس الغزال يوماً مع جماعة منهم، فأزروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس ، فقال لهم الغزال : من يحفظ منكم قوله:

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم ... تأبطت زقى واحتبست غنائى
فلما أتيت الحان ناديت ربه ... فثاب خفيف الروح نحو ندائى
قليل هجوع العين إلا تعلة ... على وجل منى ومن نظرائى
فقلت أذقنيها فلما أذاقها ... طرحت إليه ريطتى ورداءى
وقلت أعرنى بذلة أستتر بها ... بذلت له فيها طلاق نسائى
فوالله ما برت يمينى ولا وفت ... له غير أنى ضامن بوفائى
فأبت إلى صحبى ولم أك آئباً ... فكل يفدينى وخف فدائى ...؟

فأعجبوا بالشعر وذهبوا فى مدحهم له كل مذهب ؛ فلما أفرطوا قال لهم الغزال : خفضوا علىكم فان الشعر لى ! فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التى أولها :

تداركت فى شرب النبيذ خطائى ... وفارقت فيه شيمتى وحيائى

فلما أتمها خجلوا وتفرقوا عنه .

وكان الغزال سىء الظن بوفاء المرأة ، وله فى ذلك هذه القطعة التى تعد من أبرع ما قيل فى هذا المعنى :

يا راجياً ود الغوانى ضلة ... وفؤاده كلف بهن موكل
إن النساء لكالسروج حقيقة ... فالسرج سرجك ربما لا تنزل
فاذا نزلت فان غيرك نازل ... ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل الجتاز أصبح غادياً ... عنه وينزل بعده من يرتحل
أو كالثمار مباحة أغصانها ... تدنو لأول من يمر فيجتنى كل
أعط الشبيبة لا أبا لك حقها ... منها ، فان نعيمها متحول
وإذا سلبت ثيابها لم تنتفع ... عند النساء بكل ما تستبدل

وقد عمر الغزال أربعاً وتسعين سنة ، وعانى فى مشيبه ما عانى من كذب الغوانى، وله فى خداعهن هذه الأبيات :

قالت أحبك قلت كاذبة ... غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله ... الشيخ ليس يحبه أحد
سيان قولك ذا وقولك إن م ... الريح تعقدها فتنعقد
أو أن تقول النار باردة ... أو أن تقول الماء يتقد

[البقية على الصفحة رقم ٥٥٧]